عمل صابونجي مع بلنت خاصة لما كان هذا الأخير يجرى اتصالات مع العُرابيين ( نسبة لأحمد عرابي)[[1]](#footnote-1) لحل النزاع بينهم وبين الخديوي منعا للتدخل العسكري الأجنبي- خاصة البريطاني- في مصر. فكان صابونجي يحمل رسائل بلنت إلى العرابيين بصفته كاتبا له. وقد بقي صابونجي في خدمة بلنت إلى لآخر سنة 1883 م.[[2]](#footnote-2)

وفي سنة 1890 م، سافر صابونجي إلى الآستانة فعينه السلطان عبد الحميد بمعيته وأنعم عليه بدار فسيحة ومؤثثة في أحسن بقعة، وجعل له خمسين ليرة عثمانية راتباً شهرياً، واختاره استاذاً لانجاله في التاريخ، ومترجماً له من اللغات العربية والانكليزية والفرنسية والايطالية إلى التركية، ثم عينه عضواً في المجلس الكبير لنظارة المعارف، ولبث على هذا الحال حتى أُعلن الدستور فاعتزل الوظائف وانقطع إلى التأليف والمطالعة.[[3]](#footnote-3)

وهكذا نقف هنا أمام رجل من مشاهير مفكري النهضة العربية بدأ مشواره السياسي والصحافي معارضا شرسا للحكومة العثمانية ثم انتهى به المطاف في أحضان السلطان فلازمة حتى خُلِع بعد ثورة 1909 م. وهو تحول في سيرة الرجل لم يعجب «بلنت» ولا الكامن لويس شيخو[[4]](#footnote-4) صاحب كتاب «تاريخ الآداب العربية»[[5]](#footnote-5).

هذه عينة من دعاة الفكر القومي الذين اختاروا أوروبا لنشاطهم. إلا أن أغلبية الأدباء والكتاب والصحافيين الشوام هاجروا إلى مصر، لقربها الجغرافي وتشابه البيئة الاجتماعية واستقلال حكامها عن السلطنة العثمانية منذ عهد محمد علي باشا، وانتهاجهم سياسة انفتاحية على الغرب؛ وبحكم العلاقة التاريخية التي جمعت محمد علي وخلفائه بنصارى الشام. هذا بالإضافة إلى ارتفاع عدد القراء في مصر مما يساعد على رواج الصحف.[[6]](#footnote-6) كما أن مصر كانت في تلك الفترة تتوفر على فرص الاستثمار والثراء خاصة أن الشوام معرفون منذ القدم بشغفهم بالأسفار والإبحار والاتجار والمغامرة. ولذا فالعامل السياسي هو واحداً من عوامل كثيرة دفعت الشوام للهجرة من بلاد الشام عموما وإلى مصر خصوصا[[7]](#footnote-7).

 ولذلك أضحت مصر أهم وجهة قصدها المعارضين للحكومة العثمانية من الشوام خاصة النخبة المثقفة من نصارى لبنان، وقد أحصى طرازي حوالي خمسين أديبا جلهم نصارى ومن لبنان[[8]](#footnote-8).

 والواقع أن مصر لم تتمتع - في ذاك الزمان - بحرية الصحافة والرأي إلا بشكل نسبيٍ[[9]](#footnote-9)، لكنها كانت أفضل في وضعها من بلاد الشام ودون مستواها في بلاد الغرب. أنما وجد الشوام الذين هاجروا إليها حريتهم في مهاجمة الأتراك العثمانيين لسكوت حكومة الخديوي اسماعيل[[10]](#footnote-10) عن ذلك، ثم تشجيع بريطانيا - بعد فرضها الحماية على مصر سنة 1882 - ودعمها لكل أشكال المعارضة للدولة العثمانية. ولكن عندما يتعلق الأمر بانتقاد الحكومة المصرية أو الخديوي نفسه أو نظام الحماية (الاستعمار) البريطاني؛ فإن الأمر يختلف تماما[[11]](#footnote-11).

ومع ذلك يمكن القول أن النشاط السياسي للشوام الذين هاجروا إلى مصر كان موازيا للنشاط السياسي في بلاد الشام، ولكنه تميز عنه بهامش الحرية - في انتقاد الحكومة العثمانية - التي تمتعوا بها في مصر، الأمر الذي اكسبهم القدرة على التحرك والتعبير عن المطالب السياسية بشكل أكثر قوة ووضوحا مما هو عليه الحال مع أقرانهم ممن بقوا في بلادهم[[12]](#footnote-12).

تميز العمل السياسي للشوام في مصر بطابعه الفكري والأدبي من خلال المؤلفات والكتب والخطب والمحاضرات والمقالات في الصحف والمجلات.[[13]](#footnote-13) إذ أن أغلب الشوام الذين استقروا في مصر ومارسوا نشاطا سياسيا، اشتغلوا في الصحافة والتأليف إلى جانب ممارسة مهنة الطب والتدريس والتجارة وغيرها.

1. - عرابي باشا(1257-1329 هـ/1841-1911م) أحمد بن محمد.زعيم مصري. انتظم في الجندية حتى بلغ رتبة أميرالاي قاد سنة 1882 م ثورة ضد الحكومة المصرية التي كانت فاقدة للسيادة أمال التدخل الأجنبي فتذرعت بريطانيا بحماية الأجانب وقمعت الثورة فنفي عرابي وبعض الضباط إلى سيلان حيث مكث 19 عاما ثم أطلق سراحه فعاد إلى مصر حيث توفي له «تقرير» عن ثورته ومذكرات سماها «كشف الستار عن سر الأسرار». انظر:

 - الزِرَكْلي، مرجع سابق، ج1، ص 168 - 169. [↑](#footnote-ref-1)
2. - Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt, op.cit., p. 227. [↑](#footnote-ref-2)
3. - من الموقع الالكتروني: موسوعة كوم: لويس\_صابونجي/ http://alencyclopedia.com/8032 تاريخ المعاينة: ‏15‏/02‏/2017‏ 05:30 م. [↑](#footnote-ref-3)
4. - لُوِيس شَيْخُو (1275 - 1346 هـ/1859 - 1927 م) رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو: منشئ مجلة «المشرق» عام 1898 م. ولد بماردين بالجزيرة الفراتية (جنوب شرق الأناضول حاليا) هاجر إلى الشام صغيرا. انتظم في سلك الرهبانية سنة 1874 م. معظم كتاباته كانت خدمة لطائفته. من آثاره: «شعراء النصرانية»، «أطرب الشعر وأطيب النثر» و«تاريخ الآداب العربية». انظر:

 - الزِرَكْلي، مرجع سابق، ج 5، ص 246. [↑](#footnote-ref-4)
5. - قال عنه بلنت أنه انتهت به الأحوال إلى ما ينتهي به جميع رجال الثورة الشرقيين، أي سراي يلدز (قصر السلطان عبد الحميد ). أما لويس شيخو فلم يدرج اسمه ضمن قائمة أدباء النصارى، وبرر ذلك بعدول- حسب تعبيره - الدكتور لويس صابونجي عن دينه. انظر:

 - Blunt, Idem.

 - ولويس شيخو، تاريخ الآداب العربية 1800 - 1925، دار المشرق، بيروت، ط 3، 1991، ص 458. [↑](#footnote-ref-5)
6. - حوراني، مرجع سابق، ص 294. [↑](#footnote-ref-6)
7. - لمزيد من التفاصيل عن دوافع هجرة الشوام من بلادهم ودوافع هجرتهم إلى مصر أنظر:

 - محمد ماهر سعيد درويش، هجرة الشوام إلى مصر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أطروحة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2003، ص 7 - 38، 42 - 58. [↑](#footnote-ref-7)
8. - طرازي، مصدر سابق، ص 8. [↑](#footnote-ref-8)
9. - حوراني، مرجع سابق، ص 294. [↑](#footnote-ref-9)
10. - الخديوي إسماعيل: (1830 – 1895 م) إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي: خديوي مصر. ولي عليها سنة 1279 هـ (1863 م). أول من حمل لقب الخديوي اشتهر بإصلاحاته في ميدان المواصلات وخاصة حفر قناة السويس وبناء مدينة الاسماعيلية. كان مسرفا أثقل البلاد بالديون التي أدت الى الإفلاس وثم فرض الحماية الأجنبية عزل سنة 1879 م. انظر:

 - الزِرَكْلي، مرجع سابق، ج 1، ص 308. [↑](#footnote-ref-10)
11. - من ذلك أن أحد الصحافيين الشوام ويدعى يعقوب صنوع أنشأ سنة 1877 جريدة هزلية أسبوعية سماها «أبو نظارة زرقاء» انتقد فيها حكومة الخديوي اسماعيل فأمر بنفيه، فانتقل إلى باريس وأصدر الجريدة تحت اسم جديد «رحلة أبو نظارة زرقاء» واستمر في نقد أعمال الخديوي اسماعيل بكل جرأة في قالب ظاهره هزل وباطنه جد. انظر:

 - طرازي، نفسه، ص 254، 284. [↑](#footnote-ref-11)
12. - درويش، مرجع سابق، ص 83. [↑](#footnote-ref-12)
13. - درويش، المرجع نفسه، ص 84. [↑](#footnote-ref-13)